

## دراما التلفزيون في العالم العربي قراءة في راهن الإنتاج وخطاب القيم-

أ.وسام طمين

جامعة قسنطينة 3

الملخص باللغة العربية:

تشكل العديد من التلفزيونات العربية اليوم قنوات لعبور الكثير من المفاهيم والقيم والعادات والتقاليد الغربية على مجتمعاتنا، ويشاركها في ذلك كم لا يستهان به من الإنتاج الدرامي التلفزيوني العربي الذي لم يرقى بحسب المهتمين إلى مستوى مسؤولياته الوطنية والقومية في مواجهة الوافد من الإنتاج التلفزيوني الأجنبي والذي لا يزال متخلفاً فنياً وتقنياً إلا في بعض من انتاجاته المتميزة كما هو حاصل في عدد بسيط من المسلسلات المصرية والسورية. يناقش هذا المقال جزئيات عدة في صلب ثنائية العلاقة بين انتاج دراما التلفزيون وخطابها القيمي في ظل سياق درامي أضحت القيم فيه مرتبطة بجغرافية الجمهور وتحول الفنان والمنتج فيه إلى مجرد آلة للإنتاج الرتيب أمام استسلام العاملين في الإنتاج الدرامي التلفزيوني للقوانين القمعية السائدة على اختلاف مسبباتها ومصادرها كعرف سائد وكأمر واقع.

الكلمات المفتاحية: دراما التلفزيون، الدراما التلفزيونية العربية، الانتاج الدرامي العربي، خطاب القيم في المسلسلات العربية.

### Abstract :

Many Arab television channels today are channels for crossing many of the concepts and values, customs and traditions which are alien to our society, and which is shared by the considerable body of dramatic production Arab TV, which did not live up to its responsibilities, according to the national interest and nationalism in the face of incoming foreign television production, which is still lagging technically except in some of his outstanding productions as is happening in a small number of Egyptian and Syrian series. This article discusses several particles in the heart of the bilateral relationship between the production of television drama and her value discourse in a dramatic context become values in it linked to the geography of the public and in which the artist and the producer turned into just a machine to do monotonous production, all this in front of the surrender of the workers in the production of television drama to the prevailing repressive laws on the different causes and sources as a prevailing custom and as a matter of fact

Keywords: Drama TV, Arab TV Drama, Arabic Drama Production, Value Speech in Arab Series.

مقدمة:

فتحت الأعمال الدرامية التلفزيونية آفاقاً واسعة في تقديم موضوعات شتى كان البعض منها حكراً على -أو ينقل- محصوراً على الإنتاج السينمائي بسبب طبيعته وإمكاناته من ناحية و طبيعة التلقي من ناحية أخرى، إضافة إلى أنه كان الرائد ولا يزال في مجال التداول القيمي و له الخبرة الواسعة في تقديم هكذا موضوعات مما قاد إلى بلورة نوع درامي خالص يسمى الدراما التلفزيونية و التي أضحت خطاباتها من أهم النتاجات الفكرية و المعرفية الحديثة التي تحلّ جوانب المجتمع المتعددة و تتبّع مراحل تطوره وانعكاسات هذا التطور على الفرد، و الجماعة و الأسرة و القيم و ما يصاحبها من تغيير في السلوك و التوجهات وأصبح مضمون هذه الوسائل الإعلامية و الثقافية لا يقل أهمية عن المضمون الأدبي و الفكري و التاريخي.

فعلى الرغم من ثراء وتنوع المادة الإعلامية تظل الدراما في التلفزيون من أحب الفنون لدى المشاهد العربي، وقد أثبتت نتائج البحوث الإحصائية وعمليات الاستفتاء وقياس الرأي العام سواء على المستوى العربي أو المستوى العالمي أن الدراما التلفزيونية

تأتي دائماً في مقدمة ألوان الفن التلفزيوني التي يحرص المشاهد العربي على مشاهدتها بشغف كبير لقدرتها على الترفيه عنه، وتسليته، ولأنه يجد فيها نفسه وطموحاته ممثلة في مختلف الموضوعات والشخصيات التي تجسدها له، ومن هنا كان حرص التلفزيون العربي على العناية بالدراما بكافة أشكالها وقوالبها الفنية باعتبارها أكثر الفنون قدرة على الوصول إلى وجدان وفكر المشاهد وبالتالي فهي أكثر قدرة على توصيل ما يسعى لتوصيله إلى الجمهور المستهدف من قيم وتقاليد وأخلاقيات، ومن ناحية الخطابات التي تتصدى لها الدراما في التلفزيون فقد شهد المجال أكثر من تطور كاستجابة حتمية للمتغيرات الاجتماعية والسياسية التي تعيشها المجتمعات العربية بصفة عامة وأما على مستوى الإنتاج فكثير من الدراسات عادت لتؤكد أن واقع الإنتاج الدرامي التلفزيوني العربي يعتريه الضعف، كما وإن غالبيتها اتفقت على انعدام أو ضعف الضوابط والمعايير التي وإن وجدت في بعض الدول العربية إلا أنها تتصف بالعمومية، مما يضطر المحكمين إلى الاجتهاد بالاعتماد على أحكامهم الشخصية وعدم استنادهم على الأسس الفنية.

- انطلاقاً من هذه المقدمات العامة يتكفل هذا المقال بالإجابة على بعض من التساؤلات والتي تصب مجملها في طبيعة التحولات القيمية التي تركزها الدراما التلفزيونية العربية وعما إن كان ممكناً الحديث عن وجود أزمة قيم على ضوء هذا طبعاً أو أن الأمر لا يعدو أن يكون انتقالاً في منظومة القيم بما يتماشى و المتغيرات الإنتاجية والمجتمعية المتسارعة التي يعيشها المجتمع العربي اليوم.

أولاً: الدراما والتلفزيون في العالم العربي: تجارة رائجة

تتشترك الدراما التلفزيونية مع غيرها من الفنون الأدبية الأخرى الرئيسية كالشعر والمسرح والرواية والقصة في مجموعة من الخصائص والسمات التي تميزها كنوع أدبي عن مختلف الأنماط الكتابية في استخدام اللغة كوسيلة للتعبير، ولا تزال تمثل موقفاً خيالياً في نفوس المشاهد له تأثيره القوي في تحريك مشاعره ووجدانه نحو قضايا معينة تمس مجتمعه بشكل مباشر أو غير مباشر وذلك عن طريق الاتصال بعواطف المشاهد والتعبير عن مشاكله وهمومه وآلامه وطموحاته.<sup>1</sup>

تتكاثر المسلسلات الاجتماعية والتاريخية والبدوية على شاشات التلفزيونات العربية وتتشابه معظمها، فالأجواء ذاتها والديكور ذاته، والممثلون يتبادلون الأدوار من مسلسل لآخر ويتحولون إلى نجوم اختص معظمهم سيرا على خطى السينما المصرية، والقصور بحسب المختصين لا ينتج عن الموضوعات بحد ذاتها، ولا حتى عن تشابه الموضوعات، بل عن تشابه الحشوة الداخلية لهذه الموضوعات من ناحيتي الشكل والمضمون، وتشابه المنطلقات الفكرية والفنية والإنتاجية التي تصب في حقيقة الأمر في خانة الاستثمار المالي المحض. ومن هذا المنطلق، يمكن إبداء الملاحظات الحذرة وإجراء نوع من المقارنة العامة والمقارنة بين ما تم إنتاجه من أعمال درامية وبخاصة السورية والمصرية، وتبيان أوجه التشابه أو التمايز بينها.

وهنا لابد من الإشارة إلى أنه كلما زاد الاقتراب من التاريخ المعاصر سياسياً، كلما زادت الألغام الرقابية التي قد تصادف الأعمال الدرامية، فما قد ترضى به رقابة دولة عربية معينة، قد ترفضه رقابة دولة أخرى. وإذا كان الدور الرقابي الفعلي لم يعد مؤثراً كما في الماضي، فإن هذا لا ينفي احتمالية الاعتراضات التي قد تواجه هذا العمل أو ذاك.

وهكذا فإذا كان المسلسل السوري على سبيل الذكر بات ينحو نحو معالجة قضايا المنطقة والدول المجاورة، باعتبار أن التاريخ هنا مترابط ومتصل، فإن هذا الاقتراب لا يخلو من المخاطر، والمشكلة تتعلق هنا بأن التاريخ المعاصر والحاضر في الأذهان غير مكشوف الحقائق تماماً. وغالباً ما يتم كشف حقائق جديدة تجعل من الضروري إعادة النظر في الأحكام السابقة التي

طرح في حينه، والتي لا تخلو من التجني على بعض القوى والأوساط السياسية. هذا وأن الحكم الموضوع المنجرد من الهوى والمستند إلى حقائق كاملة، متنوعة المصادر قد يحتاج إلى زمن ومسافة تاريخية كافية.

وفي الجانب الآخر نلاحظ أن تحديد القوى السياسية في أعمال تلفزيونية مصرية معاصرة يمثل نوعاً من الخدمة للموقف الرسمي. أي أن الطروحات السياسية تبدو مجبرة لصالح السلطة وتستمد جرأتها من رضا السلطة. ويتضح هذا الأمر تحديداً في العديد من المسلسلات المصرية التي ركبت موجة الهجوم على التطرف عبر نموذج الإرهابي المنتمي إلى الجماعات الإسلامية المناهضة للحكم فيمصر، وبات من الشائع رؤية هذه النماذج حتى في الأعمال التي ليس لها طابعاً سياسياً واضحاً، وتعالج قضايا اجتماعية وعاطفية.

لم يقتصر التطور في مجال الدراما التلفزيونية العربية على اقتراحها من التاريخ المعاصر والسياسة. فلقد حدث تطور آخر مرادف. فمن المعلوم أن انتاج المسلسلات التلفزيونية العربية في الماضي كان محكوماً بقائمة ممنوعات تفصيلية، ومن هذه الممنوعات ظهور النساء غير محتشمات، أو مشاهد الرقص الشرقي، أو تصوير شاب وفتاة (وحتى لو كانا زوجاً وزوجة) داخل غرفة، وتصوير المقابر والجنائز وغيرها من الممنوعات التي التزمت بها شركات الإنتاج التلفزيوني على مدى سنوات طويلة. والآن أصبح كل هذا مباحاً، فالتطور بدأ يسير في الاتجاهات كافة.

و إلى جانب الدراما المصرية و السورية و بالعودة لحديثنا السابق فإننا نسجل حضوراً في نسق تصاعدي للدراما الخليجية التي بدأ عدد أعمالها يرتفع من سنة لأخرى و لكنه مازال يعاني من جمود على مستوى الأفكار ويحافظ على ثوابت وحبب التخلص منها في العصر الراهن، و نذكر منها الصورة السلبية التي تظهر عليها المرأة في هذه الأعمال و هي صورة المرأة الفاشلة عادة في علاقاتها الأسرية حتى و إن أظهرها العمل ناجحة على المستوى العملي، فهي إما مطلقة أو زوجة أولى تعاني من تصرفات زوج ارتبط بثانية وثالثة... وهي امرأة تعيش في عالم الرجل.<sup>2</sup>

و رغم ظهور الدراما في بلدان عربية أخرى غير مصر وسوريا، فإن الملاحظ حتى الآن هو أن هذا الظهور لم ينجم عنه نشوء صناعة درامية فعلية راسخة و مستقلة ذاتياً-ينطبق هذا على جميع البلدان العربية الأخرى تقريباً دون استثناء- حيث تبدو الطفرة الدرامية فيها مرتكزة بدعم الدولة فقط، أي مهددة بالتوقف في أي لحظة، وبمجرد إيقاف هذا الدعم الذي لم ينجح طيلة أزيد من ثلاثة عقود في تشجيع القطاع الخاص على ولوج مجال الإنتاج، بل أدى إلى إحجام رأس المال الخاص عن ذلك باعتباره مغامرة حقيقية معروفة نتائجها سلفاً، وذلك تحديداً لعدم إدراج دعم الدولة ضمن تصوّر عام للنهوض بالصناعة الدرامية ككل، على مستوى التكوين والعرض و التوزيع والمواكبة. والملاحظة التي تهمنا هنا بشكل خاص فحواها أن القسم الأعظم من تلك الأعمال سواء كانت مصرية أو غير مصرية، إنما كان من إنتاج مؤسسات وهيئات تنتمي وتمول من الدولة، ولا يزال هذا هو حال بعضها حتى اليوم. فمنذ ولادته قبل عقود، لم يتوقف القطاع العام عن إثارة السجالات وعن التعرّض للهجمات وعن طرح التساؤل عن جدواه.

هذا وتختلف، بل تتعدّد المواضيع والأفكار التي تعالجها الدراما التلفزيونية العربية حيث أنّها تحاول من أن تستفيد من مختلف المجالات المعرفية كمنع تستقي منه مواضيعها وأفكارها ويمكن تحديدها في النقاط التالية:<sup>3</sup>

❖ الواقع الراهن: أصبح الواقع الذي تعيشه الشعوب العربية في شقه الاجتماعي خاصّة، مادّة خصبة تستقي

منها الدراما التلفزيونية مواضيعها مثل: البطالة، البيروقراطية، الظلم... الخ حيث اتجهت بعض المسلسلات إلى معالجة مثل هذه المواضيع بجرأة محاولة الخروج من نمط المواضيع القديمة (كقضايا العشق، الخيانة الزوجية...) غير

أن الكثير من النقاد يرى أن المعالجة الدرامية التلفزيونية لها تبقى سطحية سواء كانت هذه المعالجة بأسلوب جدّي أو أسلوب فكاهي.

❖ التاريخ أو السياسة: منذ بداية إنتاج الأعمال الدرامية والمسلسلات العربية في الثمانينات كانت تصنيفات المسلسلات العربية واضحة ومحددة ومحدودة فهي إما مسلسلات دينية أو اجتماعية، عاطفية أو ريفية بدوية. إلا أن هناك توجّهاً جديداً للدراما التلفزيونية العربية وهو المسلسل التاريخي المعاصر الذي أخذ يقترب أكثر من الماضي القريب، إلا أن هذا الاقتراب يبقى حذراً فلا يجرأ على الدخول في المناطق الخطرة، والتي تقتضي منه المواجهة المباشرة مع الواقع السياسي الراهن والذي تمارس عليه الضغوطات والرقابة حيث أنه كلما زاد الاقتراب من التاريخ المعاصر سياسياً، كلما زادت الألغام الرقابية التي تصادف الأعمال الدرامية.

❖ الإبداع الروائي الأدبي: تعتبر الأعمال الروائية الأدبية والقصص من بين المصادر التي تستقي منها الدراما التلفزيونية العربية مواضيعها كأعمال الأديب المصري "نجيب محفوظ" وأعمال الروائي الفلسطيني "غسان كنفاني" حيث تعتبر أعماله الأدبية التي ترجمت إلى أعمال تلفزيونية من بين أنجح المسلسلات.

❖ الثقافة المحلية: تعتبر الثقافات المحلية البدوية الريفية من بين المصادر التي يستقي منها كاتبا الدراما التلفزيونية مواضيعهم كقضايا الثأر والانتقام في صعيد مصر، بالإضافة إلى الحكايات الشعبية المتوارثة ولقد أدى تعدّد المصادر التي تستقي منها الدراما العربية التلفزيونية مواضيعها إلى اختلاف الأعمال العربية ما بين الدراما الاجتماعية التاريخية، الدينية، السياسية... الخ. ويعدّ التنوع في المواضيع والأحداث والطروحات والتّوعيات أهمّ ما يميّز الدراما السورية بدورها ويجعلها في مقدّمة الدراما العربية من حيث العمق ومدى المتابعة الجماهيرية، وما لا شك فيه فإن الدراما السورية وخلال الأعمال الماضية استطاعت أن تقدّم أعمالاً من مختلف الأنماط (اجتماعية- تاريخية- كوميدية- بيئية) وبالتالي كسبت لها جمهوراً من مختلف فئات وأطياف الشعب العربي الذي وجد ضالّته فيها ومعبراً عن المشكلات والقضايا المتشابهة في الكثير من البلدان العربية.

ثانياً: الإنتاج الدرامي العربي في مجال المسلسلات التلفزيونية

بينت الدراسات أن كل الناس يتعرضون للدراما التلفزيونية و أن أغلبهم يفضلها عن غيرها من البرامج و لهذا السبب أوجدت قنوات متخصصة بما تبثها على مدار اليوم و الليلة لأنها أصبحت مجالاً استثمارياً جذب التجار الباحثين عن الربح و الشهرة أيضاً و ربما أن منهم من لا يشاهدها و لا يعرف مدى تأثيراتها الفكرية لدى المتلقين، هذا الكنز الثمين الذي اكتشفه المستثمرون العرب أثناء تهافتهم على التجارة في مجالات ما يعرف بالفضائيات التي أنشئوها في السنوات القليلة الأخيرة و مازالت تتكاثر، تولد عنه ارتباك وفوضى عجيبة في أساليب و أشكال إنتاج الدراما العربية و السبب أنه نشأ طلب عليها أكبر بكثير من المتوفر منها، إضافة إلى انعدام استراتيجيات مقننة لما يسمى الإعلام العربي، فلا ضوابط و لا معايير تحكم هذا الإنتاج الاتصالي الذي يستهدف و يؤثر في العقول والأفهام.<sup>4</sup>

وبلاحظ تزايد نشاط شركات الإنتاج الخاصة تزايداً كبيراً، بحيث أصبحت شريكة للمحطات الحكومية وأحياناً عبر الإنتاج المشترك أو رديفة لها، و منافساً قوياً لها أحياناً أخرى، من حيث كمية الإنتاج الضخم والمكلف معاً، و لكن الأهم من حيث إجادة التسويق، حيث بدأ ذلك بالإنتاج في الثمانينات خارج مصر في "استوديوهات دبي" و "أثينا" وخطت سوريا على النهج ذاته في "دبي و ليبيا"، ثم ازدهر الإنتاج الأردني حتى كَبُوتِه عقب حرب الخليج الثانية، وما لبثت أن تطورت الشركات

المصرية و السورية ، سيما مع بناء استوديوهات خاصة، واعتمد عدد من الأعمال على عربات نقل صغيرة أو على تقنية الكاميرا المحمولة و هو ما أعطى دفعة قوية لتزايد حجم الإنتاج بالإضافة إلى إعطائها هامشا أكبر للتنوع في المضامين.<sup>5</sup> هذا وتعتبر مصر محليا على مستوى المحتوى التلفزيوني العربي القوة الأكبر في هذا المجال منذ فترة طويلة وذلك بإنتاج ما يعادل 67% من إنتاج المسلسلات التلفزيونية في المنطقة. و على الرغم من كون مصر أكبر مركز للإنتاج في المنطقة إلا أن المحتوى الذي يقدمه يخدم السوق المحلية بشكل أساسي مع القليل من عمليات الإنتاج الفني التي تصل بالفعل إلى المشاهدين في أنحاء المنطقة العربية.

كما استطاعت الدراما السورية وضع علامات فارقة أيضا من خلال تقديم فرص جذابة للمنتجين بتكاليف منخفضة. هذا بالإضافة لما تتمتع به من مسلسلات الدراما السورية الطويلة و التي أصبحت جزءا هاما من المائدة التلفزيونية الرمضانية، و لكنها شهدت تراجعا ملحوظا في الفترة الأخيرة بسبب الأحداث السياسية<sup>6</sup>، كما أن الزخم الإنتاجي للدراما السورية لا يعني الجودة و النوعية، فنظرة أولية على المشاريع وفقا لصحيفة "المدن" تقود إلى اعتقاد بأن الأعمال الدسمة قليلة نسبيا، مع التآجيلات التي طالت عدة مشاريع لافتة ، لكن و برغم هذا و بخلاف السنوات القليلة الماضية، تجاوزت الدراما السورية في الموسم الماضي الصعوبات الإنتاجية و التوزيعية مع إعلان صناع الدراما مشاريعهم للموسم الرمضاني الجديد بـ 30 مسلسلا مختلفا و هو أعلى معدل إنتاجي في البلاد منذ العام (2011).<sup>7</sup>

و لقد طرح دخول المحطات الخاصة لإنتاج الدراما التلفزيونية، و على رأسها المسلسلات العديد من القضايا ومنها رغبة الشركات الخاصة في هذا المجال في تحقيق مكاسب مادية ذات طابع تجاري في أسرع وقت ممكن وفق قانون العرض و الطلب، حيث غالبا ما تتجه إلى خلق ظروف إنتاجية تجارية لا تتوافق أبدا مع الظروف الصحيحة للكتابة وإنتاج المسلسلات، بحيث أنها تستيق الوقت الكافي لكتابة نص السيناريو و الإنتاج إلى فترة زمنية أقصر مما يتطلبه هذا العمل، كما أن دخول الإنتاج الخاص للدراما أدى إلى تحكم هذه الأخيرة بالمضامين الفكرية لهذه المسلسلات<sup>8</sup> و هنا يشير الناقد "نزار إبراهيم" في كتابه الجديد "الخطاب الفكري في الدراما السورية" إلى أهمية رأس المال في منطق اللعبة الدرامية، فيقول من استطاع أن يتحرر برأسماله استطاع أن يمتلك جزءا مهما من قراره و سيادة توجهه و استقلالية عمله وهذا ما دفع الدولة السورية إلى تشجيع الرأسمال الوطني لدخول هذا النوع من الاستثمار ومنحه التسهيلات والتفضيلات الكبيرة و الميزة و اهتمام و سخاء الدولة في دعم هذا التوجه الإنتاجي كصناعة سوقها و ميدانها هو عقل الإنسان والمجتمع. و مع التأكيد على أن الدراما السورية كانت تعيش أزمتها المتعددة منذ سنوات في مستوى قوانين الإنتاج و دور الرأسمال الخارجي، و صولا إلى لعبة التوزيع و تحكم الفضائيات الخليجية في هذا المستوى، فإنّ هذه الأزمة ستأخذ بعدا حادّا بعد مرور عدّة أعوام على اندلاع الثورة السورية، و التي عكست ظلالها على المشهد الدرامي ككلّ، ليس آخرها حسابات الربح و الخسارة، و تخوفات المنتجين من لعبة التسويق، و ضعف الإعلان أو غيابه، و شبح المقاطعة السياسية و أشياء أخرى كثيرة.<sup>9</sup>

تشير الإحصائيات الأخيرة إلى أكثر من مائتي مليون دولار هي كلفة إنتاج الدراما العربية خلال شهر رمضان سنويا وقد تزايد، هذه الكلفة تعد الأضخم من نوعها في تاريخ قطاع القنوات العربية، و تتمثل السمات الأساسية لهذه الاقتصاديات في ارتباطها العضوي المثير للجدل بشهر رمضان الكريم، و تعود هذه السمة الرئيسية في الأساس إلى منطق تدعيم الأرقام على نحو لا تخطئه عين، ف شهر رمضان يستحوذ بمفرده على حوالي 60% من إجمالي حصيلة الإعلانات في المنطقة العربية، و هي الحصيلة التي تبلغ قيمتها حوالي خمسة مليارات دولار أي أن كلفة الإعلانات العربية تكون أضخم ما تكون في هذا الشهر



الفضيل. ولعل هذا الأمر يفسر لنا أموراً عديدة منها مثلاً قيام رجال أعمال بافتتاح محطات تلفزيونية خاصة لا تعمل إلا في شهر رمضان هي محطات تدخل في سباقات ماراطونية محمومة تضم أكثر من 600 قناة فضائية مجانية، فالطبيعة الاجتماعية لهذا الشهر الفضيل تجعل المشاهدة العائلية للبرامج التلفزيونية تصل في العادة إلى ذروتها في هذا الموسم الاحتفالي، لكن إذا كانت كلفة الدراما الرمضانية قد بلغت هذا العام أكثر من 200 مليون دولار فإنها قد بيعت للمحطات الخاصة و العامة بهوامش أرباح طائلة مقابلة حقوق البث، هذه الأرباح الطائلة تفسر على الأرجح الأجور الضخمة التي يحصل عليها نجوم هذه المسلسلات. لكن ثمة من يتحدث في المقابل عما يصفونه بخل هائل في توزيع هذه الملايين على أطراف العمليات الإنتاجية، وفي عدد كبير من هذه المسلسلات يستحوذ نجم المسلسل على نصف ميزانية العمل الدرامي بمفرده وهذا يعني اقتطاع الكثير من الحقوق المالية لنجوم الصف الثاني والثالث وحقوق الكومبارس ومن الحقوق المالية لبقية العاملين في المسلسل بمن فيهم كتاب الدراما والمخرجين والمصورين، كما أن الارتفاع المبالغ فيه في كلفة الدراما أسفر فعلاً عن توقف الكثير من الأعمال عن التصوير أو تأجيلها. أما السؤال الذي قد يكون أكثر أهمية بالنسبة إلى الكثيرين فهو هل من حق التلفزيونات الرسمية العربية إنفاق أموال دافعي الضرائب على الترفيه في منطقة تعدّ من أكبر معازل الفقر والبطالة في العالم.

وعلى الرغم من وجود العديد من المعايير الهامة لإنشاء منظومة متماسكة للإنتاج الإعلامي الدرامي العربي، إلا أنه يمكن اعتبار خمس نواحي على أنها الأكثر ضرورة، وذلك بحسب نتائج المقابلات مع شركات الإنتاج الإعلامية الإقليمية، وهذه النواحي هي: المواقع، البنى التحتية، والدعم المتوفر للإنتاج، العائدات على الاستثمار والخوافر، السلامة والبنى التحتية للمدينة، توقّر أصحاب المواهب. وعلى الرغم من الأداء القوي في بعض هذه المتطلبات إلا أنه لا يوجد حالياً منظومة إعلامية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا تبلي بلاء حسناً على مستوى عروض المواقع، إلا أن البنى التحتية للمدن تعدّ عائقاً في أغلب الدول فيما عدا الإمارات العربية المتحدة، بالإضافة إلى ذلك فإن كل من البنى التحتية الخاصة بالإنتاج وتوفر أصحاب المواهب والخوافر المالية بشكل أحص هي كل من الأمور التي لم يتم العمل على تطويرها بالشكل الكافي الذي يسمح بخلق منظومة إعلامية حيوية للإنتاج الدرامي.<sup>10</sup>

إن المتأمل في أحوال الإنتاج الدرامي العربي يجد نفسه مضطراً للتفكير في الوضع العام المتخلف الذي يعيشه هذا الإنتاج التلفزيوني، ويذكر هذا الوضع بالوضع الذي عاشته السينما العربية في الثلاثينات والأربعينات مع الأخذ بعين الاعتبار الفوارق النسبية التي يفرضها حتماً التطور الزمني، كما يلاحظ المتأمل البطء الشديد في التطوير على الرغم من استمرار عجلة الإنتاج في الدوران وتوزعها على مختلف أنحاء العالم العربي من خلال الشركات الخاصة والعامة.

وباستثناء بعض المسلسلات القليلة التي تحمل في طياتها الحد الأدنى من الجدوية في طرح الموضوعات فإن غالبية الإنتاج الدرامي التلفزيوني تبقى متخلفة شكلاً ومضموناً، وعاجزة عن استيعاب متطلبات العصر والثقافة وعاجزة عن استيعاب التقنيات الحديثة التي تعطي للعمل الدرامي شكلاً فنياً معبراً. هذه الظاهرة المتعلقة بالهبوط الثقافي والفني الذي يلازم المسلسلات التلفزيونية العربية تنتج برأينا وقبل كل شيء عن الغياب شبه التام للحريات الديمقراطية في العالم العربي سواء في مجال التعبير السياسي المباشر أم في مجال التعبير من خلال الأشكال الفنية والأدبية، وتتضح هذه الظاهرة بشكل خاص من خلال الإنتاج الدرامي التلفزيوني نظراً لطبيعة الظروف التي يعيشها مع ناحية التوزيع والعرض.

وبالمقارنة مع أشكال التعبير الأدبية والفنية فإن الوضع المتعلق بالإنتاج التلفزيوني الدرامي يشكل الصورة الأكثر قتامة، فإذا كانت أشكال التعبير الفكري والفني غير التلفزيونية تستفيد أحياناً من هامش الحرية المعطى قسراً، وتجد وسائل تمكنها من

قول بعض ما تريد بطريقة واضحة، فإن الإنتاج التلفزيوني يجد نفسه محاصراً أشد الحصار بقوانين الرقابة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تسعى شركات الإنتاج للربح السريع فتخلق تبعاً لذلك، ظروف إنتاج تجارية لا تتوافق أبداً مع الظروف الصحيحة للكتابة وإنتاج المسلسلات، كما تتحكم محطات البث الرئيسية بالمضامين الفكرية لهذه المسلسلات وتصب الحالات في نهاية المطاف في خانة واحدة وتتوحد أهدافهما.

تفرض شركات الإنتاج على كتاب وفناني المسلسلات التلفزيونية السرعة في الإنتاج، يكتب المؤلفون عادة الحلقة الواحدة من كل مسلسل في فترة لا تتجاوز الأسبوع في أحسن الأحوال، وفي معظمها تكون فترة كتابة المسلسل كله نحو الشهرين، وفي أثناء الإخراج تحدد المسلسلات المحلية فترة يومين أو ثلاثة، على الأكثر، لتصوير حلقة كاملة أي ما يقارب الساعة من الزمن، القصير جداً لا يعني بالحد الأدنى من المطلوب من أجل عمل حرفي متقن، فكيف إذا كان المطلوب الوصول إلى مستوى فني رفيع؟

إن هذه الشروط المتشابهة للإنتاج تجعل الفروقات بين عمل وآخر من الناحية الفنية، أي بناء السيناريو ومن ثم الإخراج قليلة في جوهر العام. بالطبع ثمة ما يميز كاتباً عن آخر من حيث المهبة والمهارة، وثمة ما يميز مخرجاً عن آخر وممثلاً عن غيره، ولكن هذا التمايز لا يأخذ مداه بشكل حقيقي ويتحقق فقط عبر جزئيات لا تغير من واقع الأمر شيئاً. وتجد إمكانات التمايز بين أدباء أو فناني التلفزيون، أو بالأحرى إمكانات الإبداع، شروطاً إضافية تضغط عليها وتحد منها، وتستند هذه الشروط إلى المتطلبات الأيديولوجية التي تطرحها محطات البث من جهة، وقوانين الرقابة الصارمة، أو بالأحرى قوانين الممنوعات من جهة أخرى.

إن المسلسلات التي لا تتقيد بالتوجهات الأيديولوجية التي تحدد في كثير من الأحيان نوعيات الموضوعات المتداولة، تجد نفسها ملزمة بالتقيد بقوانين الممنوعات التي تتفاوت بدورها بين بلد وآخر، وتمتد مساحة هذه الممنوعات من القضايا الفكرية والسياسية والأخلاقية الكبرى، لتصل إلى جزئيات صغيرة جداً.

تبقى قوانين الممنوعات أمراً قابلاً للتجاوز في مجتمع يتشرب فيه الإنسان الممنوعات منذ ولادته، إذ إن الإنسان يكتسب الخبرة اللازمة لإيجاد متنفس ما لأفكاره ولمشاعره.

أما الخطورة الكبرى فتجيء من فرض توجهات فكرية محددة وفرض موضوعات محددة، بدونها يصبح المسلسل سلعة غير قابلة للتداول. بالطبع هذه النوعيات من التوجهات المواضيعية ليست وحدها المسيطرة على الساحة، إذ إن الحاجة إلى التنوع والحاجة إلى مواضيع معاصرة أيضاً تفرض نوعية مسلسلات أخرى تتراوح هذه بين نوعيات تدعي معالجة مواضيع اجتماعية، وبين مسلسلات تعتمد التشويق البوليسي، ومواضيع تبحث في التاريخ الحديث ومحاولة تحميله أبعاداً رمزية راهنة... الخ مرة أخرى ثمة حاجة إلى تكرار القول بأنه توجد استثناءات وتمايزات، ولكنها تبقى رهينة لشروط الإنتاج والعرض، التي كما أسلفنا تحولها إلى نصوص متشابهة بعامه، على الرغم من اختلاف القصص.

ثالثاً: التلفزيون والسينما العربية... مجتمع معاصر ومفاهيم مستهلكة

تستمد الدراما التلفزيونية العربية بعامه نموذجها من السينما المصرية السائدة ومن التقاليد التي أرستها، ومن طبيعة العلاقة التي بنتها مع الجمهور، والتي يمكن تلخيصها بعبارة "الجمهور عاوز كده" حيث أن السينما العربية رهنّت ذاتها على رغبات الجمهور أي جمهورها<sup>11</sup>، ومن الناحية العملية فثمة حاجة لإعادة النظر في طبيعة الأحكام الشائعة حول السينما العربية السائدة، والدراما التلفزيونية المنتشرة، تلك الأحكام التي تعكسها الممارسة المتبعة في النقد اليومي للسينما العربية والدراما

التلفزيونية، والذي يمارسه النقاد و الصحفيون وحتى بعض المشاهدين العاديين في رسائل القراء، على صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية، والذي يحلل هذه الأعمال فقط من زاوية أنها منفصلة عن الواقع العربي ومشاكله المعاصرة، وأنها لا تتماشى مع مراحل التطور الذي تعيشه المجتمعات العربية في القرن العشرين.

النظرة الموضوعية لطبيعة السينما العربية تشير إلى أن هذه السينما ليست منفصلة بل متصلة بالواقع الاجتماعي العربي، من حيث أنها تحمل في ذاتها نفس تناقضات المجتمعات العربية والمتمثلة بالثنائية الحضارية، وهنا لا بد من ملاحظة أن هذه الطبيعة الثنائية تستمد شرعيتها من حيث كونها تعمل لخدمة أو لصالح طبقة دون أخرى، ترتبط بمصالح الطبقات المسيطرة في المجتمعات العربية ومصالح الفئات الحاكمة التي تمثلها، وتخدم بخاصة مصالح رأس المال الذي يصنعها ويعاملها كوسيلة للربح والاستثمار المالي من ناحية، ووسيلة للتأثير الفكري والعاطفي من ناحية ثانية، غير أن هذه الملاحظة لا تحجب حقيقة أن التحليل السليم لبنية هذه السينما لا يمكن أن يكتمل إلا إذا أخذت بعين الاعتبار الخواص المشتركة بين هذه السينما وبين المرحلة الحالية لتطور المجتمعات العربية، ومن ضمنها التكوين النفسي والأخلاقي والفكري والاجتماعي للإنسان العربي. وأهم ما يميز هذه الخواص المشتركة هو التناقض البنيوي. فالمجتمعات العربية تعيش تناقضات في عديد المستويات ذات العلاقة بين الإنتاج وتحديد الهوية الاقتصادية للمجتمع، وتعيش تناقضات في المستوى الأيديولوجي، حيث تتعايش وتتصارع المفاهيم العلمية مع المفاهيم الغيبية المثالية، كما تسود في المجتمعات العربية حالة التناقض بين الأعراف والعادات الموروثة وبين العادات والبنى الأخلاقية والنفسية الجديدة التي تفرضها طبيعة التقدم الموجود رغم كل شيء. وهذه التناقضات تتجلى بشكل واضح في السينما المصرية، كونها تناقضات تقوم بين تصوير لمجتمع معاصر وتكريس لمفاهيم قديمة، بين الاستفادة من تصوير مواضيع يفترض أنها غير أخلاقية مثلاً مواضيع الحب التي يستفاد منها لتصوير مشاهد إثارة جنسية، ثم الانعطاف الدرامي في النهاية نحو المواعظ الأخلاقية. وهذه التناقضات المشتركة يمكن اختزالها أو تبسيطها بالقول، أنها تعكس ثنائية التقدمي السلفي في النواحي الحياتية جميعها.<sup>12</sup>

وهناك جانب آخر من الخواص المشتركة في بنية السينما العربية يتجلى في غلبة المفاهيم الأخلاقية المطلقة على المفاهيم الاجتماعية والسياسية المحددة تاريخياً وطبقياً. فالمفاهيم الأخلاقية المجردة أو المطلقة تلعب دوراً فاعلاً وأساسياً في حياة عامة الناس في مجتمعاتنا العربية، ولهذا نلاحظ أن المواعظ الأخلاقية تشكل التغطية المناسبة للمواضيع المعالجة في السينما العربية السائدة، وعاملاً أساسياً من عوامل تأثيرها على جمهورها. فالموعظة الأخلاقية تلاقي تجاوباً وقبولاً حسناً في أوساط عامة الناس، والذين تلعب المواعظ في حياتهم اليومية وفي تكوينهم النفسي والأخلاقي دوراً جوهرياً. ومن هذه الخواص المشتركة أيضاً اعتماد السينما المصرية على الانفعالات الحسية وهي الانفعالات التي اصطلح على تسميتها بالميلودراما، إذن دراسة هذه الخواص المشتركة وغيرها أمر ضروري لتتمكن من فهم مدى ارتباط السينما المصرية والأعمال الدرامية التلفزيونية بالواقع المعاصر، ومدى صحة عكسها له، ومن ثم فك لغز تأثيرها الواسع على الجمهور.

في حساب الخسائر والأرباح الناتجة عن معادلة التأثير المتبادل، سنجد أنفسنا أمام مفارقة حضارية تتجلى في كون الجمهور هو الخاسر الأكبر، إذا ما نظرنا إلى المسألة من ناحية النتائج الثقافية المعرفية وانعكاساتها على التكوين النفسي والأخلاقي والاجتماعي للجمهور العريض. وهذه المفارقة تشير إلى أننا نجد أنفسنا أمام وضع يتسم باللامعقولية، فمن جهة تليي السينما حاجات نفسية وأخلاقية عند الجمهور، ومن جهة أخرى ونتيجة لذلك بالذات، فهي تؤثر سلباً على وعيه وعلى تكوينه



النفسي والأخلاقي. وهذه المعضلة تحتاج إلى تضافر جهود علم الاجتماع وعلم النفس مع النظرية السينمائية للبحث عن حلول لها على المدى البعيد.

إن مواصفات الإنتاج الجيد تتطلب تمويلا كبيرا لم تعد بعض شركات الإنتاج العربية الخاصة قادرة على تحمله ما يلجئها للعمل منتجا منفذا لبعض التلفزيونات الوطنية. والأخيرة كما يقول هؤلاء لا تقوم بهذا لوجه الفن بل لأسباب سياسية مثل إنتاج أعمال درامية موجهة ضد ما يسمى بالإرهاب ما يجعل صناع الدراما العربية رهنا لأجندات سياسية بالدرجة الأولى، ويقترح هؤلاء تحديد سوق الإعلام العربي ولو مؤقتا لحفظ الدراما من الزوال.

و أيا يكن الأمر فإن الطرفين يتفقان على وجود أزمة حقيقية تهدد مستقبل الدراما العربية بينما فريق ثالث يرى أن الأزمة لا علاقة مباشرة لها بالأزمة المالية، و لا تتخلى الدول العربية و المنتج العربي عن دوره المفترض تجاه مجتمعه، بل هي أزمة غياب رسالة و شح كوادرو، و يقول هؤلاء بأن مستوى كتاب السيناريو العرب و أعدادهم في تراجع، و أن بعض المخرجين أصبح يبحث عن ربح و شهرة سريعين يجدهما لدى منتج لا يهتم سوى الربح فتضيع بين هذا و ذاك ربح الدراما الحقيقية التي تعبر عن مجتمعات تتحول و تتساءل عن دورها بين الأمم، و يؤكد هؤلاء على ما يذهبون إليه بالقول أن أعمالا مثل "أم كلثوم" أو "الملك فاروق" و "التغريبة الفلسطينية" و غيرها كانت أعمالا ضخمة و مكلفة لكنها ربحت فنيا و جماهيريا لانسجامها مع ما يتطلع إليه المشاهد، فبادلها الأخير حبا بحب بعيدا عن معايير الربح و الخسارة.

رابعا: دور دراما المسلسلات التلفزيونية العربية في إنتاج وتشكيل القيم

تعد القضايا المجتمعية جوهر ومضمون الدراما التلفزيونية العربية إذ ركزت العديد من الأعمال الدرامية العربية على القيم السلبية كقيم الفساد وغياب الشرف والتفكك الأسري وظهور طبقات اجتماعية لا تقيم للثقافة وزنا ولا تباي بالعلم وتزعزع المراكز العلمية وتدهور المكانات الاجتماعية فلم يصبح للفئات المثقفة الملامح التي كانت تميزها من قبل، كما أظهرت الدراما أن التمسك بالقيم الاجتماعية المقدمة و المبادئ النبيلة أمرا ليس واقعا.

بحيث تقدم الدراما التلفزيونية كثيرا من القيم الاجتماعية والأفكار في صورة عميقة سريعة التغلغل في النفس البشرية من خلال المعاشية، ففي كثير من الحالات يتأثر الفرد بمسيرة الأبطال من خلال العمل الدرامي وتضحيتهم في تحقيق أحلامهم وكسب معاركهم، فيتزود بقيم العمل والرغبة في استكمال مسيرته الخاصة في الحياة أو في تعامله مع المشكلات التي يواجهها، كما أنها تؤدي دورا كبيرا في كسب عواطف المشاهد لأن فيها الجاذبية القوية التي تجذب المتلقي وكل ما كانت الفكرة متسلسلة، كلما كان التفاعل أكثر وأكثر لأن من طبع الإنسان اكتساب التجارب من غيره لكي يسد الفراغ الموجود في داخله و يستفيد من تجارب الحياة، والإنسان يطمح إلى أن يكون أكثر من مجرد كيان فردي، بل هو يريد أن يكون أكثر اكتمالا و لا يكتفي بأن يكون فردا منعزلا بل يسعى إلى الخروج من جزئية حياته الفردية إلى كلية يرجوها ويتطلبها، و انه يسعى إلى عالم أكثر عدلا وأقرب إلى العقل و المنطق ويريد أن يحوي العالم المحيط به ويجعله ملك يديه.<sup>13</sup>

وإذا ما أردنا أن تستمر الدراما التلفزيونية استثمارا صحيحا وناجحا وحكيما، فإننا نلجئ ثمار كثيرة من ورائها، لأنها أيسر السبل في الوصول إلى نفوس المتلقين من المجتمع ولها تأثير كبير وواسع في المتلقي ويمكن استثمارها في عملية التنمية والتطوير، ذلك لأن للدراما القدرة على تحقيق بناء القيم وتعليم أفراد المجتمع أسلوب الحوار وتغيير سلوك المجتمع، والدراما التلفزيونية يمكن وصفها بسلاح ذو حدين حال وسائل الاتصال الأخرى، والدراما تعتبر سلاحا سهلا وخطرا، ما يستدعي دعوة شركات الإنتاج العربية إلى لأن يحاولوا إنتاج دراما تعالج مشكلات المجتمع وبطريقة فنية وحكيمة لكي لا يترك المتلقي العربي

يتلقى الدراما الغربية الفاسدة. والملاحظ رواجها في الشبكات البرمجية للقنوات الفضائية كالمسلسلات الأمريكية المعادة أكثر من مرة والمسلسلات المكسيكية المدبلجة التي تدور في أغلبيتها حول الغرام والانتقام، بحيث يسهل على المشاهدين الذين يعيشون أوضاعا صعبة، التماهي مع أبطالها والمسلسلات العربية التي تحوز المسلسلات المصرية نسبة كبيرة منها أي بحدود 80%<sup>14</sup>.

تعتبر المسلسلات العربية التي يقدمها التلفزيون من الأشكال البرمجية التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية من جانب الجمهور، والدراما التلفزيونية يمكن أن تحدث تأثيرا على المشاهدين صغارا كانوا أم كبارا .. ويلاحظ من مشاهدة هذه المسلسلات أنها تتناول موضوعات وقضايا مختلفة تتفاوت في جدتها في عرض مشكلات المجتمع، وتقدم هذه المسلسلات نماذج مختلفة من شرائح المجتمع كما أنها تقدم أدوارا اجتماعية متعددة الشخصيات، وكذلك تقدم أشكالا متنوعة لقطاعات المهن المختلفة،<sup>15</sup> لذا فقد أصبحت الوظيفة الأساسية المنوطة بهذه الأعمال الدرامية عامة والمسلسلات التلفازية على وجه الخصوص وهي الإصلاح والتعليم... غائبة عن الواقع الذي نعيشه اليوم، إذ أن المتأمل لها يجد فجوة عميقة بين قيم الإسلام و تعاليمه و آدابه القويمة والتي كان من المفترض أن يؤمن بها أصحاب تلك المسلسلات و يدافعوا عنها و يحرصوا على ترسيخها كي يتمثلها الناس في علاقتهم برؤسهم وفي أنفسهم ومع بعضهم البعض، وبين ما تتضمنه هذه المسلسلات من قيم لا يمتُّ كثير منها بصلة إلى العقيدة التي نعتقد بها ولا إلى المبادئ والقيم والأخلاق التي ينبغي أن تصدر عنها وأن تمثلها مع الحرص على إجراء بعض المقارنات اليسيرة في جوانب معينة من تلك المسلسلات.<sup>16</sup>

إنَّ طرح القضايا الوطنية ومناقشة هموم المواطن و الاستلها من التراث الشعبي و القيمي العربي لا يعني بالضرورة غياب المتعة عن المشاهد فالفن هو ذاكرة الشعوب منذ فجر التاريخ والأعمال السينمائية والتلفزيونية إذا ما قدمت بالشكل اللائق درامياً فهي تعدّ مصدرا هاما ورائعا للتوثيق التاريخي للتراث الشعبي والحضاري شأنها في ذلك شأن الفنون الأخرى في مختلف مجالاتها، بل قد تكون أكثر منها أهمية نظرا لسهولة تفاعل المشاهد معها ومعاشته للأحداث من خلالها، فالدراما فن يمكنه إعادة إحياء الموروث الحضاري الثقافي مرات عديدة برؤى فنية مختلفة كما يسهم في تعريف الأجيال الجديدة به كلما توارى عن الأنظار.<sup>17</sup>

ولا يمكن الادعاء بأن مجتمعا ما يتماثل في كل ظروفه الاجتماعية وتسيطر عليه قيم ومواقف واتجاهات متماثلة يأخذ بها كل أفراد، فهذا التطابق النمطي لا تعرفه المجتمعات البشرية بحكم اختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والتراثية لفئات هذا المجتمع، والأصح أن المجتمع الكبير ينقسم فيما بينه إلى مجتمعات صغيرة تسيطر على كل منها مجموعة خاصة من القيم والاعتبارات، إلا أن هناك عناصر يشترك فيها الجميع، وهي عليا بحكم المال أو النقود أو التعليم أو بسببها جميعا، وقيم واتجاهات هذه الفئات هي التي تسود عادة في المجتمع تفرض نفسها على الآخرين.<sup>18</sup> و بدورها تشكل العديد من الفضائيات العربية اليوم قنوات لعبور الكثير من المفاهيم والقيم والعادات والتقاليد الغربية على مجتمعاتنا ويشاركها في ذلك كم لا يستهان به من الإنتاج الإعلامي العربي الذي لم يرقى إلى مستوى مسؤولياته الوطنية والقومية في مواجهة الوافد من الإنتاج التلفزيوني الأجنبي وظل متخلفا فنيا وتقنياً إلا في بعض من إنتاجه المتميز كما هو حاصل في عدد بسيط من المسلسلات السورية والمصرية.<sup>19</sup>

والملاحظ للإنتاج الفني التلفزيوني العربي والمتمثل على وجه الخصوص بالمسلسلات المصرية والسورية تلك التحولات التي رسمت خارطة جديدة لنوعية الأعمال المعروضة وتشكيلا للذوق العام، وقد أحصت بعض الصحف والمواقع إنتاج الدراما العربية في

شهر رمضان الفارط على سبيل المثال ما لا يقل عن ثمانين مسلسلا ثلاثون منها إنتاج مصري، وفي التقرير الأول من برنامج المرصد الذي تبثه قناة الجزيرة الفضائية لإحدى حلقات شهر جوان من سنة (2016) رصدت سيطرة الدراما الاجتماعية في مواضيع معظمها معاد وباهت مع سيطرة للخطاب السياسي الذي يكون أحيانا ذكيا وغالبا مباشرا وفجأ. واستعرض التقرير جملة من المواضيع التي اهتمت بها الأعمال الرمضانية ولاحظ أن ثمة حضورا قويا للعنف وجرائم القتل، ومن جانب آخر اجتاز نباحات الماضي كمسلسل ليالي الحلمية وحضورا للأجواء الشامية مع إسقاطات أكثر وضوحا على الأحداث التي تعصف بالمنطقة.<sup>20</sup>

وقد أدرك صناع الدراما أن عليهم أن يواكبوا اللحظة التاريخية المفصلية في تاريخ الشعوب، وأن يتطرقوا إلى أثر الثورات في النفوس، وفي تحديد ملامح الواقع السياسي الاجتماعي ضمن حلقات مسلسلاتهم، كما أن منتجي الدراما العربية انتبهوا إلى ضرورة أن يعكسوا توقعات المشاهدين، و أن يعبروا عن مشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم. فكانت ثورة 25 يناير بالخصوص، وما اتصل بها من قضايا فساد وحملات انتخابية، وخطاب سياسي ديني من المواضيع الطاغية على الدراما الرمضانية على وجه الخصوص.<sup>21</sup> ولئن دأبت الدراما العربية فيما مضى على تحاشي الارتباط بالرقابة، وتجنب المواجهة مع الأنظمة القمعية مؤثرة التركيز في الغالب على الماضي أو عرض بعض المشاكل المجتمعية أو الاجتماعية، فإن سياق الحراك فرض على المبدعين أن يسايروا النسق الثوري وأن يتعاملوا مع الواقع القائم عبر معالجته دراميا وهكذا لم تملص الدراما العربية من مسؤولية التفاعل مع الواقع الآني وإعادة تشكيله من خلال رؤية فنية.<sup>22</sup>

وبعيدا عن نوعيات الأعمال الدرامية ومضامينها وأهدافها، أو حتى نجاحها وفشلها على الصعيد الجماهيري، فإن كثيرا من أصوات النخبة العربية المعنية تعالت ورفعت شعارات التنبيه والتحذير من مخاطر ما تطرحه كثير من هذه الأعمال وطالبت بترشيح وفلترة كثير منها حتى لا يتعارض مع جدران منظومتي الأخلاق والقيم، فإن البعض قد نَوَّه إلى الآثار السلبية التي تخلفها زحمة الأعمال الدرامية على صعيد الأسرة وتربطها وتماسكها، بل تعالت أصوات المتخصصين الذين سارعوا إلى إثبات وجود علاقة سلبية مباشرة بين ما تطرحه كثير من الأعمال الدرامية، وما تتعرض له الأسرة من مشاكل وأزمات تصيبها بالتصدع والانحيار، وقد تباينت الآراء ما بين مؤيد ومعارض حول تأثير الدراما التلفزيونية على مفهوم وحقيقة الترابط الأسري والتواصل بين أفراد الأسرة الواحدة، وسلوك الشباب والأطفال واتجاهاتهم ونظرتهم إلى الحياة، وعلاقتهم الأسرية البينية، وانعكاسها أيضا على سلوكياتهم اليومية.<sup>23</sup>

ومع ازدياد عدد القنوات الفضائية المتخصصة في تقديم الدراما التلفزيونية والمسلسلات المختلفة، ازدادت الحاجة إلى التعرف على نوعية القيم الاجتماعية التي تعالجها الدراما التلفزيونية خاصة مع اتجاه عدد كبير من هذه الأعمال إلى تقديم نماذج معلبة وبلاستيكية للحياة وأن تفرغ القضايا الحياتية من مضامينها الحقيقية مقدّمة معالجات سطحية لها ومتجنّبة الخوض في أية قضية شائكة أو إشكالية، أو تسطيح هذا النوع من القضايا لدى تناولها وحرمانها من دلالاتها العميقة، لترسم لنا في النتيجة صورة شبيهة للمجتمع.<sup>24</sup>

و للإشارة فإن هذه الصورة الشبيهة أضحت اليوم يعرف "السلطة" هي التي يجب أن تبقى لدى المتلقي على مستوى الوعي، وهي التي يجب أن تكون أساسا في صياغة قيمه ونظرتهم للواقع، لكي تبقى قضايا العمق دائما ضمن نطاق حرمة وقداسية الطابو و لتقع في مجال المسكوت عنه، وهنا نشير إلى أن الدراما العربية المنشودة اليوم هي الدراما التي تسعى إلى إثارة الوعي

للهيوس بجمهورها نحو المستقبل عبر نافذة تلقي بالضوء على واقعه واحتياجاته و ما يعصف به من تناقضات ليكون قوام خطاباتها معاناة الجمهور العربي وآماله و طموحاته لا دراما تعمق الهوية بين القيم والآداب .

خاتمة

إن الدراما التلفزيونية صناعة ثقافية مستمرة والطلب عليها مرشح للنمو باطراد خاصة في الأسواق التي تشكل الحصة الأكبر من السوق الإعلانية في المنطقة العربية ونقصد هنا دول الخليج التي باتت تشكل مقرا لمعظم الشركات العملاقة العابرة للقارات والتي تمتلك ميزانيات إعلانية ضخمة. و من ثم فإن صناعة الدراما ستمتد أفقيا و عموديا و سينشط الطلب على الكثير من الكفاءات التي تقع بشكل مباشر و غير مباشر في دائرة العمل الدرامي، ويتطلب الأمر هنا من محطات التلفزيون دعم الفنانين الجادين والتعامل مع أعمالهم، لا باعتبارها مجرد سلعة سهلة التسويق، وإنما باعتبارها فنا وثقافة ومساهمة في نشر الوعي من أجل فهم حقائق الحياة واستيعابها. هذا بالإضافة إلى فوائد أخرى سوف تجنيها هذه الصناعة التي لا تقدر بثمن و تتمثل في الجانب المعنوي بتعزيز قيم الإنسان العربي العليا و ثوابته الوطنية و ثقته بنفسه و قدرته على التفوق و التميز و الإنجاز، لتصبح هذه الأعمال و أصحابها رموز نجاح بكل معنى الكلمة، يساهمون في نشر هذا النجاح إلى قطاعات عديدة أخرى. وهذا يقتضي أيضا شروط إنتاج وتوزيع جديدة تقوم على قاعدة متينة لا تستعبد ضرورات الربح السريع.

الهوامش:

- <sup>1</sup> آمال قرامي، الأعمال الدرامية الرمضانية لموسم (1434هـ-2013م) هل نحن أمام معالجة فنية جديدة، مجلة الإذاعات العربية، مجلة فصلية تصدر عن إتحاد الإذاعات العربية، العدد 03، 2013، ص90.
- <sup>2</sup> المنصف العياري، الإنتاج الدرامي العربي في رمضان، مجلة الإذاعات العربية، العدد 16-04-2008، ص17.
- <sup>3</sup> برنامج المرصد، قناة الجزيرة الإخبارية، عدد يوم 2016/06/30.
- <sup>4</sup> جف يوسف وآخرون، الفرص و التحديات التي يواجهها سوق الإنتاج العربي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مجلة أوليفر وإيمان Oliver Wyman، لجنة دبي للإنتاج التلفزيوني، مارس 2013، ص09.
- <sup>5</sup> جف يوسف وآخرون، مرجع سابق، ص17.
- <sup>6</sup> خنادق أهل الدراما السورية في ظل الثورة، جريدة القدس العربي، العدد 7194، عدد يوم الأربعاء 1 أوت 2012، ص12.
- <sup>7</sup> خورشيد حرفوش، الدراما التلفزيونية تلقي بإسقاطاتها على الأسرة والمجتمع "سلبا وإيجابا"، عبر موقع جريدة الإتحاد www.El.itthad.ae، تاريخ الزيارة 2017/03/29، 20:00.
- <sup>8</sup> رمضان 2016، تراجع الإنتاج المصري و انتعاش الدراما السورية، موقع هافينغتون بوست عربي [www.huffpost.com](http://www.huffpost.com)، تاريخ الزيارة 2017، 14:51/3/15.
- <sup>9</sup> رياض عصمت، واقع الدراما التلفزيونية العربية في نهاية القرن العشرين، مجلة الإذاعات العربية، العدد 4، 1999، ص29.
- <sup>10</sup> زينب سعيدي، النقد الصحفي للدراما التلفزيونية العربية في مجلة الإذاعات العربية، رسالة ماجستير، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة محمد خيضر-بسكرة-الجزائر، 2011-2012، ص119.
- <sup>11</sup> عدنان مدانات، مسارات الدراما التلفزيونية العربية، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 2002، ص28.
- <sup>12</sup> نفس المرجع، ص 31-بتصرف-
- <sup>13</sup> سعد لبيب، نحو قراءة جديدة للدراما التلفزيونية، مجلة الفن الإذاعي، العدد 180، أكتوبر 2005، ص 11.
- <sup>14</sup> نفس المرجع، ص11.

- <sup>15</sup> عبد العزيز بن حمد الحسن، فوضى الدراما العربية، جريدة الرأي الكويتية، العدد 16660، عدد يوم الاثنين 2014/02/03
- <sup>16</sup> عبير محمد مصطفى، المعالجات التشكيلية للموروث الشعبي في الدراما العربية (السينمائية والتلفزيونية) ودورها في حماية التراث الحضاري، مؤتمر التربية الفنية والعنف، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، مصر، 5-6 أبريل 2011-بتصرف-
- <sup>17</sup> عدلي سيد محمد رضا، البناء الدرامي في الراديو والتلفزيون، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص 32.
- <sup>18</sup> عدلي سيد محمد رضا، صورة الأب والأم في المسلسلات العربية بالتلفزيون، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص 17.
- <sup>19</sup> عدنان مدانات، مسارات الدراما التلفزيونية العربية، دط، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، الأردن، ددت، ص 22.
- <sup>20</sup> عز الدين عطية المصري، الدراما التلفزيونية مقوماتها وضوابطها الفنية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية غزة، فلسطين، 2010، ص 605.
- <sup>21</sup> علي عبد الرحمان، للدراما وجوه عديدة، مجلة الفن الإذاعي الصادرة عن اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري، العدد 194، أبريل (2004)، ص 17.
- <sup>22</sup> محمد سامي، في آليات التلقي والتعليق-الدراما التلفزيونية وإعادة إنتاج القيم الاجتماعية، جريدة قاسيون، العدد 383، يوم 24 سبتمبر 2008.
- <sup>23</sup> مساعد بن عبد الله المحيا، القيم في المسلسلات التلفازية، ط1، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، 1993، ص 14.
- <sup>24</sup> مصطفى المنساوي، تاريخ السينما العربية (مداخل للفهم و التفسير)، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 100، ص 13.